

الهوية والتقدم

د. محمد صابر عرب

المتابع للعديد من مؤسسات العالم العربي، سواء في الجامعات أو في الإعلام أو حتى في ثقافتنا الاجتماعية يلحظ عدم العناية بالثقافة العربية بالمعنى الكلاسيكي، ووصل الأمر ببعض لدرجة الاعتقاد بأن أدوات المستقبل تتطلب التخفف من هذا العبء التراثي والتاريخي وراحت بعض الجامعات العربية تقلص من ساعات تدريس اللغة العربية وآدابها، بل إن علومًا إنسانية مثل التاريخ والفلسفة والاجتماع راحوا يدرسونها بالإنجليزية، بينما تضاعفت العناية بتاريخ وآداب الشعوب الأوروبية والأمريكية.

وبحجة الانفتاح على ثقافات الآخر أخذوا يعظمون من لغة وتاريخ وآداب الغرب بحجة الانفتاح وامتلاك ثقافة العصر، وأخذت بعض الجامعات الأوروبية فروعًا لها في العديد من العواصم العربية، وراح يتسابق البعض نحو الالتحاق بهذه الجامعة أو تلك لمجرد أنه سوف يتباهى بأن يكون من بين خريجيها، وقد أغفلوا عناصر موضوعية تحول دون أن يكون مستوى التعليم هو نفس المستوى؛ وكذا اختلاف البيئة الاجتماعية والثقافية في بلد المنشأ عنها في تلك العواصم التي تحمل لافتات لتلك الجامعات ولا تستهدف إلا الربح، وفي سبيل

ذلك هانت علينا لغتنا وقللنا من شأن تاريخنا وثقافتنا ورحنا نتسابق في امتلاك لغة الآخر أياً كان هذا الآخر، وهو أمر مطلوب جداً شريطة أن نُعنى أولاً بثقافتنا وبتاريخنا وكل ما من شأنه أن يحافظ على هويتنا العربية.

لم تلتفت هذه المؤسسات إلى أن كل النهضات التي شهدتها العالم منذ القرن السادس عشر الميلادي وحتى التاريخ المعاصر لم تغفل هويتها ولم تقلل من شأن ثقافتها ولم تجد تعارضاً بين امتلاكها أدوات النهضة وبين العناية بثقافتها القومية، بل إن الثقافة القومية كانت بمثابة الدرس الأول للنهضة الإنجليزية والفرنسية والألمانية، بل إن دولاً مثل اليابان أو الصين أو حتى الهند كانت اللغة والتاريخ والثقافة القومية بمعناها العام جميعها كانت بمثابة الحاضن الرئيسي لكل مشاريع النهضة والتقدم.

أما في عالمنا العربي فإننا نمضي نحو طريق محفوف بالمخاطر ولنا أن نتصور مستقبل الأجيال القادمة وقد أغفلنا لغتنا وتاريخنا وثقافتنا، لا نبالغ في القول بأن مصير أبنائنا سوف يشبه مصير الهنود الحمر بعد أن اعتقد البعض منا أن معارف المستقبل تتعارض مع مفردات ثقافتنا القومية. حتى إذا كان البعض يعول على اللحاق بالمستقبل في غيبة الهوية وتحت ادعاءات واهية فإن

كل التجارب تؤكد هشاشة هذه المقولات التي لا سند لها من التاريخ أو الواقع المعاصر.

في عالمنا العربي الآن مؤسسات تعليمية من الابتدائي وحتى الجامعة لا مكان فيها تقريباً للمعارف العربية وكأننا نستهدف تكوين جيل من الشباب لا علاقة له بوطنه ولا بتراثه ولا بثقافته وهم أشبه ما يكونوا بقاطني الفنادق الكبرى.

لا أخص قطراً عربياً بذاته ولا مؤسسة تعليمية تحديداً، ولكن أخص كل المؤسسات التي اتخذت سياسات نحو إسقاط الهوية، بل عليهم أن يدرسوا تجارب دول مثل اليابان أو الصين أو حتى كوريا الجنوبية، فلم تعد تجارب التقدم خافية على أحد، بل إن كل دولة قطعت شوطاً في الحضارة المعاصرة، علينا أن ندرس تجاربها ومعرفه ما اعتقده البعض منا خطأ بأن ثمة عقبات ثقافية وتاريخية تحول دون التقدم.

لعل الجامعات الأمريكية تعد حالة مختلفة؛ فمنذ إنشاء فروع لها في بيروت أو القاهرة وطوال ما يقرب من قرن وهي تعني بالعربية وآدابها دراسة ووعياً، لدرجة أن كبار أساتذة اللغة العربية وآدابها في القاهرة وبيروت عملوا أساتذة في هاتين الجامعتين، وأن العناية بالثقافة العربية كان دائماً بمثابة جزء

من البرنامج الثقافي والتدريسي؛ لذا قدمت خدمة جلييلة لترثنا؛ إضافة إلى أنها لم تفتعل خصومة بين التاريخ والواقع.

إن المعوقات الحقيقية نحو النهضة العربية تكمن في واقعنا الاجتماعي والتعليمي والسياسي والثقافي، وهي معوقات تستوجب العناية والدراسة في المؤسسات الأكاديمية والإعلام والجمعيات الأهلية والأحزاب... الخ.

لقد كنا نأمل أن تقوم الجامعة العربية بدورها في هذا المجال، لأنه من صميم مهامها وكذا المجامع العلمية المعنية باللغة والتاريخ وكل ما من شأنه تعظيم الثقافة العربية، حتى النخب الثقافية والأكاديمية، التي نثق في غيرها لم تقم بدورها في هذا المجال رغم أنها مستهدفة من هذا التيار الجارف الذي يستهدف هويتنا الثقافية

د. محمد صابر عرب
رئيس الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق
القومية المصرية